

بين الثورة الماركسيّة والثورة القوميّة

بقلم الدكتور عفيف بهنسي



الظروف الاجتماعية الاقطاعية والبرجوازية (البروليتاريّة) .
وماركس يعترف بهذا ولكن المشكلة في جعل هذا الجمال مهياً
لاكبر قدر ممكن من الجماهير ، وليس محصوراً بفئة او طبقة ،
بالبلاط او بالقصور . ففي الظروف الرأسمالية توسعت ولا شك
رفعة الجماهير المثقفة والراغبة بأخذ حقلها في تذوق الجمال الفني
ولكن عملية الاستغلال وابقاء هذه الجماهير ضمن حدود الحاجات
الأولية للحياة ، قد توسعت واصبحت خطراً ، ثم ان البرجوازية
هي التي أوجدت على اساس احساسها بالعالم فنا عبوديا أي فن
وعظ مفصوح وعاطفة مسؤولة خارجة عن الحد ، فن نقل حرفي
يمجد التقدير والانقطاع عن متع الحياة ، وفنسا وهمياً بعيداً
ومنقطعاً عن الحياة .

ثم ان الانسان المحتاج الذي استهلكه الهموم لا يبحث عن
الجمال الفني ، بل ولا يفكر حتى بالنظر الطبيعي الجميل . لذلك
لا بد من ثورة اجتماعية اولا ، تقضي على الاستغلال وتقضي الكادحين
من الحاجة ، وتفسح امامهم فرص التمتع بالجمال الفني المرتبط
بمشاعرهم وقضاياهم .

ذلك ان الانسان يفهم الافكار ويتذوق الجمال الذي ينطبق
مع ظروفه . وان البروليتاريا لكونها الطبقة الاكثر ثورية فسي
المجتمع تمتلك الاحساس الجمالي للفن الجديد (الفن الاشتراكي)
ولكن الثورة المادية وضعت الثقافة والفن في مازق ، بل لعلها
وضعت الحرية الابداعية في احراج لم تستطع البقرات الكامنة
تجاوزه الى اعمال فنية وثقافية تصل الى مستوى الاعمال السابقة
لعصر التطبيق المادي لنظام المجتمع والاقتصاد والفكر الماركسي .

ومما لا شك فيه ان الثورة العلمية الماركسية اذ تقوم على
فكرة الديالكتيك المادي فهي تقدم تفسيراً جديداً للحياة والطبيعة
والفكر لا يختلف عن التفسير الهيغلي وهو تفسير ديالكتيكي مثالي،
او هي تختلف عن التفسيرات الميتافيزيقية التقليدية . ولكن السؤال
الطروح على أذهان المفكرين ، كيف يكون الامر بعد مقارنة النتائج
العلمية في طبيعة المادة والتي توصل اليها علماء الذرة في هذا
القرن ، مع الاسس العلمية التي ارتكز عليها ماركس والتي اعتمدت
على مكتشفات القرن الماضي الذي اطلق عليه اسم قرن المكتشفات ؟
فهل يبقى الديالكتيك هو القانون الثوري ، بل نمة سؤال آخر
يتعلق بمحور التمييز بين الاساس المادي والاساس المثالي ، فاذا
كان الفكر سابقاً للمادة (المثالية) او كانت المادة سابقة للفكر

ان اتجاه الجدلية المادية الذي قاده ماركس وانفلز ، قد
جعل من الفن انعكاساً للاقتصاد وذلك تبعاً لقيام هذه الجدلية
على تقلب المادة على الفكر . وهكذا اصبحت الثورات الاقتصادية
او اية تحولات اجتماعية ، تؤدي الى ثورات وتحولات فنية ، ولقد
كان لانتشار الماركسية اهمية في انتشار الوعي الطبقي ، وفي
ثورة الطبقة البروليتاريّة التي تملك الفعالية السليمة للعمل
والبناء . وهكذا فان الماركسية وقد ثارت على المثالية واقامت
فلسفتها ونظمتها على أولوية المادة ، جعلت الفن عملاً مادياً ولكنها
ربطته بالبنية الفوقية ، التي تتضمن مختلف الشاعر والاهام
والافكار التي تملو على الحاجات اليومية . ويتميز التفكير
الماركسي في مجال الفن بالنقاط التالية :

اولاً - ان الجمال الواقعي والطبيعي هو التربة والاساس
للجمال الفني .

ثانياً - ان الموضوع هو اساس الذات وليس العكس ، ثم
ان الذاتية والموضوعية ماديتان في النهاية .

ثالثاً - ان العمل الفني لا يقصد لمنفعته ، ولكن بالمقابل يرفض
اذا كان غير هادف . فاذا كنا لا نهدف من وراء الفن جني منفعة
مادية ، فان الغاية النهائية للعمل الفني هي مادية لانها تقصد
تغيير العالم تغييراً عملياً .

رابعاً - ان النشاط الجمالي هو نوع من انواع النشاط
الاجتماعي ، وهو يخضع لقوانين الانتاج العامة .

خامساً - ان الاحساس الاشتراكي المتكامل بالحياة يقوم على
رفض الملكية الخاصة ، وبالتالي على تحرر كل الشاعر والخواص
الانسانية تحراً تاماً . فالملكية الخاصة تجعل الحياة قائمة على
المنفعة والاستغلال فتضيع القيم الموضوعية والجمالية . امسا
الاحساس الاشتراكي فهو يقوي العلاقة الانسانية والمحبة ، ويدفع
الانسان الى الثورة المستمرة من اجل تغيير العالم لصالح الانسان .

سادساً - يعتبر جمالياً في نظر الماركسية ، كل ما هو حر ،
وحق ، وثوري متطور عضوياً ومنسجم . ويعتبر قبيحاً أي يحدث
اشمئزازاً جمالياً ، كل ما هو مذل ، مظلوم ، مشوه ، لا ثوري .
يتحدد هذا الموقف من الفن ، من خلال منطلق ماركسي (لا
يحدد وعي الناس وجودهم بل على العكس ، ان وجودهم الاجتماعي
هو الذي يحدد وعيهم . لا شك ان الجمال الفني موجود في جميع

(المادة) فكيف نفسر مثال ذلك ؟. وإذا كان الفكر هو الذي يكون المفهوم النهائي للمادة فابن يقع هذا المفهوم النهائي ، في أي مكان وأي زمان ما هي طبيعة الفكر بحسب مفهوم هيغل ، هل هو فكر السوبرمان (نيتشه) اما فكر المجتمع (كونت) أم الفكر المقدس كما يدعي الدينيون ؟.

وإذا كان العكس هو الصحيح ، أي ان المادة هي التي تكون الفكر كما يقول ماركس وانغلز ، فمن هو الذي أوجد المادة المشككة ، هل هي الطبيعة ، أم الله ، أم الانسان ؟ . وما هي طريقة ايجازها ؟ فإذا كان الانسان هو الذي أوجد المادة المشككة دون الهولي ، فهل تم ذلك عن طريق ذراعة المجرى من الفكر ؟

ان هذه الاسئلة تضعنا امام شك كبير في أهمية اعتماد اساس المادة والمثالية في تفسير الوجود . وبالتالي تضعنا امام عدم اليقين في ان المادة هي التي تصنع التاريخ وتصنع الحضارة وتصنع الثقافة والفن ، بل ان الانسان كقوة جسدية وفكرية هو الاساس في تفسير الكون من خلال صراعه مع الطبيعة والظروف الطارئة في المجتمع . وهو الاساس في تفسير الوجود من خلال ارادة الحرية .

ولهذا فان سارتر يرى ، ان الفنان او المبدع بصورة عامة ملتزم بصورة مطلقة لقضية الحرية ، لان العمل الفني انما هو تقديم خيالي للعالم من حيث ان العالم يقتضي ظهور الحرية البشرية ، والفنان يصور العالم لكي يتيح للبشر ان يحسبوا بحريتهم امام العالم اكثر فاكثر .

وهنا لا بد ان نذكر تأكيداً لهذا القول جاء على لسان اندره مالرو اذ يرى ، ان تاريخ الفن هو تاريخ تحرر الانسان ، ونحن عندما ندرس تاريخ الفن فانما نطلع على تاريخ التحرر الانساني ، تاريخ التحرر من العالم الواقعي متجاوزاً لتقليده ، وتكراره . وان الفن هو التعبير عن ارادة التغيير لدى الانسان المبدع ، فهو ثورة ولكنها ثورة ترضي الجماهير وتشعرهم بالمشاهدة في الانتصار. ولهذا فان الفن عند مالرو هو للانسان ، يساعده كمبدع او متفرج، على خلق عالم جديد مختلف عن الواقع والطبيعة . وهنا يثير مالرو مسألة الثورة على الطبيعة وجمالها وبشيد بالفن المبدع وهو الفن الذي يتجاوز الطبيعة ويعتمد على المحاكاة .

على انه اذا كان الاتجاه المادي الديالكتيكي الذي قام لاعادة النظر في تكوين العالم وفي دور الانسان ، قد شكل ثورة في مجال الفن على المفهوم الجمالي البرجوازي ، فان ثمة ثورة قومية بعيدة الجذور في تاريخ الفن عادت للظهور من جديد وفي هذا القرن بالذات وخاصة في نطاق دول العالم الثالث .

ان الماركسية التي فسرت التاريخ ، تفسيراً مادياً ، قد نظرت الى الحضارة على انها حصيلة الصراع الطبقي الذي امتد عبر التاريخ ، وبالتالي فان الثورة البروليتارية وحدها هي التي ستتيح رؤبة سليمة للعالم ونتاجاً سليماً في الفن والادب .

اما الثورة القومية الحديثة فهي تستند الى النزعة القومية القديمة في التاريخ والى الدوافع الانسانية التي تهدف اليها هذه الثورة .

والنزعة القومية لدى الانسان ، نزعة غريزية ولا تحتاج الى تفسير ميتافيزيقي فقط او جدالي وليست هي نزعة مادية فقط او مثالية ، بل هي فوق الطرق والصفات ، لارتباطها بالانسان ارتباطاً عضويًا .

ومن هنا فان هذه النزعة تضع حداً لطغيان الطبيعة على

الانسان ولتأثير الواقع والمادة عليه ، وهي تنظر الى الانسان من خلال قوة وحدته وليس من خلال قوة فرديته ، من خلال الفكر المشترك والمصلحة المشتركة وليس من خلال المثل المفروضة عن طريق الكهانة او النظرية أو أي شكل من اشكال الديكتاتورية . ولهذا فهي ثورة على هذه الاشباح التي يقرضها الفكر المثالي او التبرير المادي .

والنزعة القومية نزعة حضارية أولاً ، فهي تمارس ثورة في جميع القطاعات انطلاقاً من الثورة الفكرية التي تجدد الرؤية الى العالم والتي تزيد من المقدرة على فهم الواقع واستشفاف المستقبل ، الى الثورة الانسانية التي تقضي فيها على الحدود الشوفينية التي يمكن ان تقع القومية في اسرارها في مرحلة التخلف .

ان النزعة القومية اذ تقضي على الفردية وتقضي على الانعزال والاستغراق في الذات ، وتجعل ممارسة الحرية ابداعية خارجية وليست داخلية في نطاق الذات كما هو الامر في الفن الروحي او الفن الرومانتي المتفسخ .

والانسان في النزعة القومية ليس من حيث هو عدد بشري أو ذات حقوقية بل من حيث هو (باتوس) Pathos حسب تعبير هيغل ، أي مجموعة القوى القائمة ليس فقط بذاتها في استقلالها الداخلي ، انما تلك التي تعيش في الصدر الانساني وتحررك النفس الانسانية في أعماق اعماقها . وهي المصدر الاساسي للابداع والخلق .

ان افضل ظرف يمكن ان يزدهر فيه الفن والحضارة بصورة عامة هو الظرف القومي الذي لا يسوده الصراع الداخلي ولا الحروب ولا الواجبات القسرية ولا الروابط النظرية ، بل ان ما يربط هذه المجموعة الانسانية هو الممارسة الحرة للحق والعدل والتقليد والقوى ابداعية .

عندها تستطيع هذه القوى (الباتوسية) ان تظهر مشخصة في قوالب فردية ، وذلك تبعاً لتجسدها المبدأ القومي المشترك . بهذا يصبح موقف السلطة هو موقف الافراد ، فيعتمد النظام الديكتاتوري او البيروقراطي ليحل محله نظام ديمقراطي حر سليم، يعيش الناس فيه ، السلطة والشعب على رأس واقعهم .

ان هذه الحرية الفردية هي العامل الاساسي للتفتح الجمالي والابداع الفني ، ومثال ذلك اليونان ، فلقد ساعدت الدولة الديمقراطية في اليونان ، كما يقول هيغل ، على تربية اخلاق واضحة ومتكاملة ، وليس من قبيل الصدفة ان تشهد ازدهار الفنون الجميلة في اليونان ، فلقد تم ذلك نتيجة الايمان بمثل أعلى يقوم على الحرية السياسية وحيوية الدولة وتجسدها في افراد ولكن ليس شرطاً ان يتم هذا الازدهار وذلك التفتح الجمالي عن طريق جعل الانسان اساساً للجمال والفن . بل ان الحرية الفردية التي تؤول الى تفتح النفس والعقل تدفع الى الثورة على الطبيعة والمحاكاة والقياس ولا بد ان تضع حداً للاعتقاد السائد في أوروبا من ان المحاكاة عامل اساسي في الفن ، ومن ان الفن الكلاسيكي (الاغريقي الروماني) هو المثل الاعلى للفن الصحيح . بل ان الامر على العكس تماماً ، فالانسان او الطبيعة ليسا أساس العمل الفني ، بل هو موقف الفنان الانساني ، ومثال ذلك الفن المصري والفن الرافدي والفن البيزنطي والفن العربي الاسلامي ، هذه الفنون التي حددت دائماً مدى انتصار الانسان على الطبيعة ، ومدى خلقه للجمال الفني المختلف من الجمال الطبيعي . فالحقيقة التي

تفرضها الطبيعة والمادة هي غير الحقيقة الفنية التي يفرضها
الابداع ، وليس للفن مكان او وجود اذا هو لم يكن ثوريا ، او
بمعنى اخر اذا لم يغير من معالم الطبيعة في فنه ، واذا لم تكن
علاقته بالطبيعة علاقة مختلفة عما يفرضه الواقع اليومي . فالفنان
لا يصور المرأة لشكلها ، بل باعتبارها انسانا له خصائصه الجمالية
والفكرية والنفسية .

وهكذا فان الثورة على الطبيعة امر اساسي في مجال الثورة
القومية الثقافية .

على ان الثورة القومية لا تتعارض مع مفهوم البروليتاريا ،
ذلك ان ثورة الجماهير الكادحة لا تتجه فقط لازالة الاستغلال ، بل
لازالة الظلم الاجتماعي بجميع انواعه ، فالانسان اذا كان غابسة
في الثورتين فليس ذلك باعتباره كتلة مادية لها حقوق معاشية ،
بل لانه قوة مادية وروحية ذات حقوق حضارية ، وبهذا
فان الظلم الاجتماعي الذي نعوره واقعا في النظام البرجوازي على
الكادح ، نتيجة عدم توزيع الثروة توزيعا عادلا ، يقف الى جانب
ظلم حضاري اخر يتحملة الكادح المحروم من الثقافة والاطلاع
على اسرار الحياة وطرائفها . فالانسان يثور اقتصاديا عندما
تصبح قيمة الحاجات الثابتة اعلى من قيمة انتاجيته كذلك هو
يثور حضاريا عندما تصبح الثقافة العامة والتقدم العلمي والفني ،
سابقين لقدرته على الفهم والوعي والتثوق . وهذه الثورة المزدوجة
هي واحدة في الواقع ، لان الانسان لا يستطيع ان يثور من
اجل خبزه وحقه اذا لم يكن واعيا معنى الثورة ، كذلك لا يستطيع

ان يثور لفكره اذا لم تكن ممدته ممثلة وحقوقه مصانة .
من هنا تتجه الثورة القومية نحو الواقع المتخلف وترفع
الانسان الى الواقع المتقدم ، فالعالم يقع حضارية مختلفة ، كذلك
الزمان هو حلقات حضارية مختلفة . ولا بد من الانفتاح نحو البقع
والحلقات الحضارية الاكثر تقدما لا يصال الثورة القومية السسى
اهدافها .

فالثورة الثقافية القومية ليست انكفاء على الذات او على
الماضي او على المثل ، بل هي انفتاح على جميع الثقافات وسباق
مع جميع الحضارات . هذه هي البنية الحية للحضارة وهذه هي
آلية الثورة القومية .

ان اتجاه الفن في العالم - كما يبدو لنا - هو اتجاه قومي،
ومع ان هذا الاتجاه هو الذي يفسر تاريخ الفن والثقافة منذ
الحضارات الاولى وحتى اليوم فان الدعوة الجديدة لهذا الاتجاه
تبدو ضرورية امام صراع الميتافيزيقا والديالكتيك في تفسير تطور
الفن ، او امام الصراع المفتعل بين المادة والفكر او بين الذات
والموضوع . ولهذا كان لا بد من العودة الى وحدة الانسان الداخلية
اي اعادة حقه بفكره وجسمه المادي ، بمثله وبصورته ، وبذاتيته
وتفاعلها مع الموضوع . والعودة الى وحدة الانسان الخارجية ، اي
التحامه مع مجموعة الناس الذين يشترك معهم في المشاعر والامال
والمفاهيم والتراث ، وبذلك فقط تشكل الحضارات الجديدة ،
وتفسر الحضارات القديمة .

عفيف البهنسي

دمشق

دار الآداب تقدم

يوسف شرورو

في رواية

الحرزُ بموتِ الأيضاً

مأساة الانسان الفلسطيني في الوطن العربي . . .

٦٠٠ ق . ل .

صدرت حديثا